

تأملات في المعاني الروحية لوقفه عرفة

بقلم: أ/ مراد معيزة
المدير الفرعي للزكاة

مقدمة

الحج فريضة من فرائض الله على عباده المؤمنين لمن استطاع إليه سبيل، قال تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]، وهو عبادة تعبدا لله بها مرة في العمر على سبيل الوجوب وما زاد علمها فنافلة وقربة.

يحمل الحج معاني سامية للسياحة الدينية والروحية، فهو سياحة دينية من حيث أن الحاج يقصد أماكن مقدسة، قدست وعظمت على لسان الشرع الحكيم، أين حرم الله عز وجل وحرم نبيه عليه الصلاة والسلام، يزور قاصدها مكة المكرمة فيحط بها رحاله ليطوف ويسعى ويقف بعرفة ويبیت بمنى، ثم ينتقل إلى المدينة المنورة فهناك المزارات النورانية المباركة.

وهو سياحة روحية لأن الله عز وجل أحاط هذه المعالم الدينية بالبركة

وبالأنوار وبالأسرار، فالزائر لها وعلى قدر نيته وإخلاصه وصدقه يستمد من بركاتها وأنوارها حين تغمر روحه وتملأها وجدانا وإيمانا ليشعر أنه في عالم آخر غير الذي يعيشه في بلده، ويستمر معه هذا الوجد محمول بين جنباته حتى إذا رجع إلى وطنه اشتاقت روحه إلى تلك الديار العطرة وتمنى لو أنه يستطيع فيعيد الكرة مرة أخرى، وإن من الناس من لا يطيق صبرا أن يفارق مكة والمدينة فتجده يفئ إلىهما كل سنة متحملا المشقة والتعب في سبيل أن تكتحل عيناه برؤية البيت الحرام والقبّة الخضراء حيث مأوى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

فالحج سياحة مائعة لو أن المؤمن الحاج عرف كيف يقضي أيامه هناك باستغلال لحظاتها، يتعبد مولاه عز وجل بحضور وشهود جسده وروحه نفحاتها الطيبة، ويعيش واقعا آخر من صور القدرة الإلهية في خلقه حيث التنوع البشري في أرقى مظاهره في الخلقة

ملف العدد

كل سنة لا يقصى أحد منهم إلا العاجز المقعد.

والوقوف بعرفة رغم أنه ليس من الحرم بل هوفي أرض الحل واحد من أركان الحج بل هو أهمها من فاته فقد فاته الحج. قال ﷺ « الحج عرفة»⁽¹⁾، أي أن الحج لا يصح إلا بالحضور في صعيد عرفة المقدس.

وإذا ما تأملنا في هذا الركن العظيم من أركان الحج ألفيناه حمالا لمعاني روحية عديدة تبرز قدره ومنزلته، نذكر منها:

1 - محل تنزل الرحمات ومغفرة الذنوب:

إنه يوم للرحمة ومغفرة الذنوب والتباهي والعتق من النيران، هذه كلها يجمعها الحق تبارك وتعالى في يوم واحد ويكرم بها عباده الذين جاؤوه شعثا غربا من كل فج عميق ليشهدهم منافعهم الدينية والدنيوية.

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنت جالسا مع النبي ﷺ في مسجد منى، فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف فسلما ثم قالا: يا رسول الله جئنا نسألك فقال ﷺ : إن شئتما أخبرتكما

واللغة والعادات واللباس وعالم الناس، ويغوص بفكره في غابر الزمن حين بدأت رسالة الإسلام بفرد واحد هو سيد الخلق ﷺ ثم أخذت تنتشر إلى أن عمّت أرجاء المعمورة كلها، وانتقلت من العد بالعشرات والآلاف والملايين إلى العد بأكثر من المليار مسلم ارتضوا الإسلام منهجا لحياتهم.

كل ذلك من ثمار هذه السياحة الدينية حيث تجتمع قلوب الملايين من المسلمين في مكان واحد من غير سابق معرفة تنشد شيئا واحدا لا غيره. قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ [الحج: 25، 26].

وإن أعظم مكان يجمع حشود الرحمان في تلك البقاع المقدسة إنما هو جبل عرفة، تلك البقعة من الأرض التي اختارها الله لعباده المؤمنين الحجاج ليأتلفوا فيها في التاسع من شهر محرم من



ملف العدد

لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورا لكم
ولمن شفعتهم لهم..."⁽²⁾

وعن جار رضي الله عنه قال: قال
رسول الله :

" ما من يوم أفضل عند إلى سماء
الدنيا، فيباهي بأهل الأرض أهل السماء،
فيقول: انظروا إلى عبادي، جاؤوني شعثاً
غبراً ضاجين، جاؤوا من كل فج عميق،
يرجون رحمتي، ولم يروا عقابي، فلم ير
يوماً أكثر عتقاً من النار، من يوم عرفة "⁽³⁾

بما جئتما تسألاني عنه فعلت وإن شئتما
أمسك وتسألاني فعلت. فقالا: أخبرنا
يا رسول الله. فقال الثقفى للأنصاري:
سل. فقال: أخبرني يا رسول الله ﷺ . قال
ﷺ : جئتني تسألني عن مخرجك من
بيتك تؤم البيت الحرام... إلى أن قال
ﷺ : وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله
يهبط إلى السماء الدنيا فيباهي الملائكة
يقول: عبادي جاؤوني شعثاً من كل فج
عميق يرجون رحمتي فلو كانت ذنوبكم
كعدد الرمل أو كقطر المطر أو كزبد البحر

قال ابن الأمير الصنعاني:

خبر عليم بالذي قد أردناه
وطول خشوع مع خضوع خضعناه
وباهى بنا الأملاك حين وقفناه
أجرنا أغثننا يا إلهادعوناه
وأولادهم والكل يرفع شكواه
لمن يشتكى المملوك إلا لمولاه
ألا فانسخوا ما كان عنهم نسخناه
وذلك وعد من لدنا وعدناه
ومن ذا الذي قد نال ما نحن نلناه
به الذنب مغفور وفيه محوناه
وقال ابشروا فالفوفيكم نشرناه
عليكم وأما حقنا فوهبناه
وما كان من عذر لدينا عذرناه
وأوزارنا ترمى ويرحمنا الله

ورب دعانا ناظر لخضوعنا
ولما رأى تلك الدموع التي جرت
تجلى علينا بالمتاب وبالرضى
وقال انظروا شعثاً وغبراً جسومهم
وقد هجروا أموالهم وديارهم
إلي فإنني ربهم ومليكهم
ألا فاشهدوا أنني غفرت ذنوبهم
فقد بدلت تلك المساوي محاسنا
فيا صاحبي من مثلنا في مقامنا
على عرفات قد وقفنا بموقف
وقد أقبل الباري علينا بوجهه
وعنكم ضمنا كل تابعة جرت
أقلناكم من كل ما قد جنيتهم
فيا من أسايا من عصى لورأيتنا

2 - تقوية الإيمان:

إن صعيد عرفات يجمع الإيمان من كل أصقاع الدنيا حين تلتئم قلوب المؤمنين الوافدين من كل صوب وحذب بكل ما تحمله من أحوال إيمانية تملأ الأئدة وتنير على قلوب إخوانها فتفيض أواني الأرواح بهذه الكواكب الدرية وينتشر عبق الروح الملائكي في كل مكان فيشعر الحجاج بقوة تجذبهم نحو حضرة خالقهم ونسيم الحب لله ورسوله وزيادة في التعلق بهذه الشعيرة المباركة.

وإن كثيرا من الحجاج من لا يستطيع أن يتمالك نفسه في هذا الموقف فيغلب عليهم البكاء فتخنقهم العبرة من شدة الوجد، وآخرون يصمهم هول الموقف فلا يجدون تعبيرا لذلك إلا مواجيدهم الباطنة. كل هذا إنما هو تعبير عن ذلك الإيمان الذي غمر القلوب في هذه اللحظات الزمنية من هذه الوقفة المباركة.

3 - الإحساس بيوم المحشر:

إن الناظر لحشود الحجاج من طوائف الناس كلهم مجتمعة في مكان واحد يذكره ذلك بيوم عظيم من أيام الله،

إنه يوم المحشر يوم يقف الناس كلهم في صعيد واحد ينتظرون مصيرهم، فهذا المشهد يشبه ذاك. إنها الفكرة الإيمانية التي تسبح بعقل الحاج بعد خرق حجب الزمان في معنى قوله ﷺ " يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة... " (4). حيث لا فرق بين عربي وعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، هناك تبسط العدالة أجنحتها على الجميع والجميع ينتظر الجزاء الوفاق، حتى إذا أفاق الحاج من هذه الجولة وعاد من عرصات يوم الدين وجد نفسه أمام جحافل الحجاج وهي تلي قادمة من كل مكان إلى مكان يسع جميع الوافدين، فحينئذ سيدرك أن القيامة ليست منه ببعيد وما عليه إلا أن يشمر عن ساعد الجد للتزود لأرض الميعاد التي يشهدها صعيد عرفات.

قال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي: "وأما الوقوف بعرفة، فاذا كربما ترى من ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر، اقتفاء لهم وسيرا بسيرهم عرصات القيامة واجتماع الأمم

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: " أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم" (6).

فأي فضل لذاكر الحق تبارك وتعالى كمثل هذا الفضل، إنه في معية الحق متى تحركت شفتاه بذكره ومن كان الله معه فهل يضام أو يخيب، إنه في دائرة الحفظ والعناية والرعاية، وليس ذلك فحسب بل له مقامات أخرى زيادة على المعية اللائقة بجلال الحق سبحانه وتعالى مع عباده، وهي أن يذكر في نفس الله عز وجل ذكرا يليق بجلال المولى تبارك وتعالى متى ذكره العبد في نفسه، بل وإن جهر بذكره في ملأ من الناس قابله الحق عز وجل بذكره في ملأ خير من ملأه. ولتأملنا في هذا الحديث العظيم لكفى بالذكر والذاكر علورفعة وقدر، فمن أنت أيها العبد حتى تحظى بهذه المنزلة العلية وتكون محط معية وذكر في النفس والملأ الآخر من قبل قيوم السموات والأرضين إلا بسبب ذكرك لله عز وجل. فكن على معرفة بمنزلة الذكر في

مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة بنبيها في شفاعتهم، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكرت ذلك فالزم قلبك القراءة والإبتغال إلى الله عز وجل، فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين، وحقق رجاءك بالإجابة، فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض... (5).

4 - وقفة للطاعة والذكر:

إن يوم عرفة فرصة غالية للعمر زمانا ومكانا على الحاج أن يستغلها في التقرب إلى الله عز وجل بمختلف الطاعات ومنها ذكره سبحانه وتعالى، هذا الذكر الذي سيصقل قلبه ويطهره من جميع الأدران والران ويجعله مرآة صافية يرى فيها نفسا طاهرة تحللت من كل أوساخ الدنيا وأقبلت على الله عز وجل في هذا اليوم بقلب طاهر نقي ترجو رحمته وتخاف عقابه، انه الذكر الذي يحرق ويخرق حجب الظلمات النفسانية ووساوس الشيطان الكيدية إلى ساحات النور والرحمة والطهارة وسمو الروح.

5 - يوم للوقوف والدعاء:

هو كذاك يوم للوقوف ونعني به الحضور في هذا المكان وبحكمين مختلفين، وقوف يمتد من الزوال إلى الغروب ووقوف من الغروب إلى طلوع الفجر الصادق، فالأول واجب لا يبطل الحج بتركه والثاني ركن يبطل الحج على من فاتته، فعلى الحاج أن يستحضر معاني هذا الوقوف وخاصة من حيث بداية الوقوف الركن وهو الغروب. ليتضرع إلى الله ويتوجه إليه بقلب خانع خاشع فإن إقبال الله عز وجل على العبد يكون بقدر إقبال العبد على مولاه، وكلما كان العبد قريباً من ربه كلما ترقى روحه في معارج السالكين وتخلصت من سوءات الدنيا الزائلة وذاك هو المرغوب والمطلوب أن يتعرف الحاج على مولاه على بساط من الطهارة والصفاء والنقاء.

هذا اليوم على وجه الخصوص، وحاول ألا تفرط في شيء من ذلك واستغل الزمان فأنت في شهر من الأشهر الحرم وملتبس بفعل الحج واستغل المكان فإنه صعيد عرفات الذي لعظيم مكانته خصه الله بالزول والمغفرة والعتق. وليكن ذكرك متنوعاً بين قراءة القرآن الكريم وتسبيح وصلاة على النبي ﷺ فرادى وجماعات ليكون ذلك أدعى على التقوي على الذكر وتأثيره على القلوب والأرواح وإذا استطاع الحاج أن يهتم بالذكر في هذا اليوم في انفراده أو مع جماعة فإنه فعلاً سينأى بنفسه عن دركات النفس المظلمة ويرتقي إلى الدرجات العليا من الأنوار الربانية والنفحات الإيمانية البعيدة عن كل متاع الدنيا، إنه يتحرر بذلك من عبودية الماديات ليسمق إلى عالم المعاني الراقية.

قال ابن الأمير الصنعاني:

إلى الليل نبكي والدعاء أطلناه
وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه
وكم سائل مدت إلى الله كفاه
وكم ثوب عز في الوقوف لبسناه

وبعد زوال الشمس كان وقوفنا
فكم حامدكم ذاكروم سبوح
فكم خاضعكم خاشع متذلّل
وساوى عزيز في الوقوف ذليلنا

الصلاة والسلام بقوله ﷺ: "إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (ادعوني استجب لكم)" (8). وقوله ﷺ: "الدعاء مخ العبادة" (9). وفي حديث آخر "ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء" (10).

وإذا تحقق الحاج بالطلب مع الخشوع واليقين فإن الكريم يستقبله بالقبول والعطاء وهو الذي خزائنه لا تنفذ ولا ينقصها كرم ولا عطاء مهما بلغ، أليس هو الذي أمره بالدعاء ووعد به بالإجابة إن الله لا يخلف الميعاد. فلا تظن أن الله يبخل عليك خاصة في هذا اليوم وإنما العيب فينا وفي علاقة يقيننا ومدى صدقنا مع القريب المجيب، فلا تترك للشيطان والنفس عليك أيها الحاج سبيلا للوسوسة والنكوص بل كن متيقنا بروح المؤمن الصادق أن الله عز وجل لن يخيبك في مثل هذا الموقف العظيم وأنه سيغدق عليك من نعمه الظاهرة والباطنة ما علمتها وما لم تعلمها.

لا شك أن الوقوف بعرفة مشهد عظيم من مشاهد الدنيا الحاضرة والآخرة الغائبة وفيها يتعرف الإنسان فعلا على بعض من الحقائق الإيمانية:

وهو يوم توجه الأفئدة إلى السماء بالدعاء من قلوب عامرة بالتبتل في موقف مهيب كهذا قال أبو حامد الغزالي: "وليكن أهم أشغاله في هذا اليوم الدعاء، ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى إجابة الدعوات" (7).

وليس تحضر الداعي ما استطاع إلى ذلك سبيلا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 185]. وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 54]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

فإن الحق سبحانه وتعالى حاضر معه يشاهده ويسمع نداءه، وليصحب مع هذا التضرع والخشوع في الدعاء دلالات العبودية لله عز وجل من الذل والانكسار والافتقار ليكون ذلك أدعى للإجابة وبخاصة والدعاء يحمل هذه المعاني القدسية، والتي إليها أشار نبينا عليه

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ
دِينًا ﴿[المائدة: 4].

- يتعرف على المؤمنين الذين ارتضوا الإسلام ديناً ويتقرب منهم ويتقربون منه يلتمس منهم الدعاء ويتعلم منهم ويودعهم على أمل اللقاء بهم إن لم يكن في مثل هذا الموقف من قادم أيام الدنيا فعرصات يوم القيامة تجمعهم مرة أخرى.

إنها بعض من الحقائق الروحية واللفتات الإيمانية تستوقف الحاج هناك في جبل عرفة في هذا الموقف العظيم المهيّب، لا شك أنها تترك في صاحبها أثراً لا ولن ينساه في حياته مع تمنياته أن يتكرر المشهد في لقاء التعرف بصعيد عرفة.

- يتعرف على ربه عز وجل الذي أنعم عليه بالإيمان، هداه من بين مخلوقاته وأخذ بيده إلى هذا المكان العظيم ليكتشف من عجائبه سبحانه وتعالى في الذوات والأكوان.

- يتعرف حين تأخذه الذكرى إلى خمسة عشرة قرناً خلت على الحبيب المصطفى ﷺ الذي وقف موقفه بعرفة بجبل الرحمة خطيباً في الناس يودعهم ويوصيهم بأن يحفظوا أمانة الدين التي أتمها الحق سبحانه وتعالى بواسطة نبيه عليه الصلاة والسلام، وأن لا يحيدوا على مبادئ الإسلام السمحاء وأن يموتوا على ذلك لا مبدلين ولا مغيرين قال تعالى:
﴿إِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

قال ابن الأمير الصنعاني:

فلومن سبيل للفراق فرقناه
لحرمة عقد عندنا ما حللناه
لميثاق عهد صادق ما نقضناه
ووقت سرور في حماكم قضيناه
فذاك الذي من عمرنا قد عدناه

فوالله لم يبق الفراق لـنا
فأحبابنا بالشوق بالحـب بالجوى
لحق هوانا فيكم وودادنا
أعيدوا لنا أعيادنا بربوعكم
ووقت سرور في حماكم قضيناه



ملف العدد

- 7 - إحياء علوم الدين ج 2 ص 186.
- 8 - أخرجه أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن سيدنا النعمان بن بشير.
- 9 - أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك.
- 10 - أخرجه الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة.
- ما أخرجنا أن نحج مع معاني الحج في كل موقف من مواقفه، فليس المهم أن يحج الجسد أو العقل أوهما معا والروح غائبة عن شهود منافعه. لا شك أن الحجاج درجات ولكن أكمل الناس الحج من جمع بين الجسد في حركاته والعقل في تأملاته والروح في ارتحالاتها وترقياتها. إننا لن نتحرر من رق الحس إلا بالشعور بالمعنى. فكم من حاج حج وما حج وكم من انسان ما حج وحج لما غمر روحه من أشواق الشعور والاحساس بجمال وجلال تلك الأماكن وعظمتها.

الهوامش

- 1 - أخرجه أصحاب السنن وأحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم
- 2 - أخرجه الطبري في الكبير والبخاري واللفظ له.
- 3 - أخرجه أبويعلى والبزار وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه واللفظ له (انظر مسلم رقم الحديث 1348)
- 4 - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد .
- 5 - إحياء علوم الدين ج 2 ص 247.
- 6 - متفق عليه.